قضية الإعجاز القرآني
ونشأة علم المعاني

تاليـف
دكتـور
هـلال عطـا الله عثمـان
مدرس بقسم اللغـة العـربية وآدابهـا
بلاغـة ونقـد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ..

فقد اتضحت لعلم المعانى قواعد وحدود ، وتميزت له أصول وفروع على يد السكاكى الذى منحه اسمه ، ورفع قواعده ، وجعله واحدا من علوم البلاغة وقفى على أثره الباحثون ، فترسموا خطاه بين شارح وملخص ، ثم شارح لملخص ، وأخذت الشواهد تتكرر ، والأمثلة تتردد ، قوالب محفوظة ونماذج مرعية .

ولقد نشأ هذا العلم غضا يانعا موصول الأسباب بإعجاز القرآن الكريم إذ شرح الله صدر فريق من العلماء إلى أن القرآن معجز بنظمه ، فمضوا يبحثون فى هذا النظم المعجز كيف يكون ؟

إلى أن قيض الله لهذا الأمر عالما من أكبر النحاة استطاع ببصر نافذ وثقافة نحوية عريضة ، وذوق أدبى رفيع أن يتلقى اللواء عن هؤلاء الأعلام ، وأن يدفع الدرس النحوى دفعة جديدة تستكمل النقص فيه .

وتلفت إلى أهم الجوانب التى أغفلها جمهور النحاة فى دراسة الجملة ، ذلكم هو الإمام عبد القاهر الجرجانى .

وكان الرجل قد استطاع أن يدرك أن علم النحو لا يكفى فيه أن يكون علما تعرف به أحوال أواخر الكلمات إعرابا وبناء ، وإنما هو علم نظم الكلم وما يتصل به فى ضوء المعنى ، من نظام ترتيب الكلمات فى الجمل ، ومقاصد التقديم والتأخير ، والذكر ، والحذف ، وفروق التعبير بين الخبر الاسمى والخبر الفعلى ... الخ .

وتوضيحها ، فهى لم تجد صدى عند النحاة ، حتى جاء السكاكى فأخذ
وعلى الرغم من أن عبد القاهر قد جهد فى التدليل على نظريته
وتوضيحها ، فهى لم تجد صدى عند النحاة ، حتى جاء السكاكى فذخذ
الشواهد والأمثلة التى ضربها عبد القاهر تبيانا لرأيه ، وتأييدا لمذهبه، وجعلها أصول علم من علوم البلاغة أسماه « علم المعانى » .

وفصله عن علم النحو فصلا أزهق روح الفكرة وذهب بنورها وقد كان عبد القاهر يبدىء ويعيد فى أنها معانى النحو ، لكن السكاكى بتر هذا التركيب بحذف المضاف إليه ، ليقطع صلته بعلم النحو وهى صلة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، فالحق أن دراسة الجملة اعربية هى موضوع العلمين جميعا ، فليس من شك فى أن الجملة الصحيحة نحويا تظل مفتقرة إلى أهم خصائص الصحة ، تلك هى مطابقتها للمقام ، ومقتضى الحال .

على أنه ليس من بأس أن يكون لدراسة الجملة العربية علمان أحدهما : يعنى بصحة التركيب النحوى ، والآخر : يحفل بما وراء هذه الصحة من مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وما تدل عليه القرائن من معان جديدة تفهم من السياق بقطع النظر عن أن يكون الأول منهما منتميا إلى الدرس النحوى ، والآخر إلى الدرس البلاغى .

وهذا البحث قسمته إلى : مقدمة ، ومبحثين :

المبحث الأول فى : قضية الإعجاز القرآنى ويتضمن :

١ ـ قضية الإعجاز القرآنى .

٢ ـ مصادر الإعجاز القرآنى والعطاء البلاغى .

المبحث الثانى فى : نشأة علم المعانى ويتضمن :

١ ـ نشأة علم المعنى .

٢ ـ ميدانه .

المبحث الأول : فى قضية الإعجاز القرآنى

ويتضمن هذا المبحث :

أولا : قضية الإعجاز القرآنى ٠

ثانيا : مصادر الإعجاز القرآنى والعطاء البلاغى ٠

المبحث الأول

قضية الإعجاز القرآنى

المعلوم المؤكد أن العرب الذين وصلتنا آثارهم اللغوية من الجاهليين كانوا من الفصاحة وروعة البيان بمكان ، فهم قد امتلكوا أزمة التعبير الأدبى الرفيع ، وتفننوا فى ضروب القول وكثيرا ما كانوا يتبارون فيما بينهم لإظهار التفوق والغلب ، وإشهار الإجادة فى هذا المضمار ، محتكمين إلى من شهد لهم بامتلاك ناصية البلاغة وعرفوا بالتفوق الأدبى ، محتفلين بذلك أيما احتفال ، كما تحدثنا بذلك كتب الأدب وتاريخه ، والآثار النقدية القديمة .

ومن نافلة القول أن أذكر أن العرب كانوا أمة أمية ، وأن وسيلة المستجيد منهم إنما كانت كثرة الحفظ للآثار الأدبية الجيدة ، لكى تصقل منه الموهبة ، وتتوقد القريحة ، ويشحذ الذهن ، حتى تصير إجادة التعبير وضبط لبناته ملكة . ومن ثم يولد للقبيلة شاعر ، عليه تحدب ، وبه تفخر وتفرح ، إذ صار لها لسان قؤول ، يدافع عنها ، ويرفع شأنها ، ويذيع مجدها .

لم يكن ثم سبيل غير هذه لمن أراد أن يبرز فى مجال الشعر وفن القول ، ونزل القرآن مع بداية القرن السابع الميلادى بأنماطه التعبيرية التى هى غاية فى الروعة والبيان ، فتذوقوه وفتنوا به حتى إن أحدهم خر ساجدا حين سمع بعض آية ، وكان لا يزال على شركه كما حملت إلينا الروايات فيسأل عن سر ما أتى به من عمل فيقول سجدت لفصاحته ، ويصفه آخر بقوله : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه . هذه الأقوال

وغيرها مما أثر عنهم ، تدلنا على أنهم كانوا أمة فصاحة درجوا عليها وتوارثوها ، وعلموها متابعة دون أن يتعلموها ، فهم يمارسون النطق الصحيح ويطبقونه تطبيقا عمليا سليما دون أن تكون لديهم قواعد معيارية لتراعى عندما يتكلمون (١) .

نزل القرآن على الرسول ﷺ وهم على هذه الحال من الفصاحة والبلاغة متحديا إياهم فى أبرز خصائصهم ليثبت لهم أن النظم القرآنى فوق مستوى أفصح فصحاء البشر حتى يقروا بانه من عند الله ، وتنهض اللغة العربية أى نهضة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فقد فتحا لها أبوابا كثيرة من فنون القول ، فعولجت فيهما أمور لم تكن لتعنى بعلاجها من قبل وذلك كمسائل القوانين والتشريع ، والقصص والتاريخ، والعقائد الدينية والجدل فيما وراء الطبيعة ، والاصلاح الاجتماعى والنظم السياسية ، وشئون الأسرة ، وأصول القضاء والمعاملات ، ودراسة مظاهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات ... وهلم جرا (٢) .

وحين يتلى القرآن على العرب يسترعى انتباههم وكان من بين ما استرعاهم احتواؤه على ألفاظ عرفوها لأنها ألفاظ حديثهم ولكن مضامينها فى النظم القرآنى والحديث خفية غير مفهومة ، لذا احتاجوا من الرسول ﷺ أن يوضحها لهم ، فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها القديمة وأصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شئون السياسة والإدارة والحرب ، أو مصطلحات العلوم والفنون ، ومن ذلك ألفاظ : الصلاة والصوم والزكاة والحج ... (٣) .

---

(١) رسالة دكتوراة فى أصول اللغة للدكتور محمد القميرى هدية بمكتبى صفحة ٢٥ .

هذا هو الإعجاز القرآنى الذى منح اللفظ العربى امتدادا فى المدلول فأحدث ثورة لغوية لم تشهدها من قبل لغة من لغات البشر ، وقد وقع التطور فى اللغة العربية فى صورة انتقالات على خيط المعنى الممتد من استعمال الجاهلية إلى استعمال القرآن ، وربما كان تصور هذا الخيط فى شكل مخروطى أدق فى الدلالة على ما نريد من رسم المسافة بين الاستعمال الأصلى والقرآنى وتصوير شكله أيضا ، معنى ذلك أن القرآن حين وسع دائرة الدلالة اللفظية ـ قد منح ألفاظ اللغة مرونة هائلة ، وصلاحية باهرة للتعبير عن مختلف المعانى الطارئة فى حياة الناس ، لقد فك الألفاظ من إسارها ، وأطلقها من عقالها(٤) .

ومن هنا كان القرآن تحديا لأرباب الفصاحة والبيان ، ليكون معجزة النبى الأمى الذى نشأ بين ظهرانيهم ، وليكون مثلا لا يحتذى معجزة النبى الأمى الذى نشأ بين ظهرانيهم ، وليكون مثلا لا يحتذى، وغاية لا تدرك مع انه كلام عربى مبين ، لقد تحداهم القرآن وهم أرباب اللسن والفصاحة أن يأتوا بمثله ، وإن ظاهر بعضهم بعضا ، فما استطاعوا إلى مثله سبيلا : (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**)(٥) فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله (**قل فأتوا بعشر سور من مثله**

---

(٢) ـ أنظر فقه اللغة العربية ، د. وافى ص ١١٥ ، ١١٦ ، ط ثالثة سنة ١٩٥٠ م .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٤) العربية لغة العلوم والتقنية ، د. شاهين ص ٦١ ، ٦٢ .

(٥) سورة الإسراء آية ٨٨ .

مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) (٦) .

وقد وقف العلماء من بعد أمام عجز العرب عن الإتيان بشيء من مثل هذا القرآن محاولين تفسير هذا العجز ، فنسبوا إلى النظام من المعتزلة قوله بالصرفة أى أن الله صرف العرب عن معارضته مع قدرتهم عليها(٧) ، ونسب آخرون القول بالصرفة إلى الشريف المرتضى من الشيعة ، وقد رد الخطابى على القائلين بالصرفة بأن دلالة الآية تشهد بخلافه ، فقد قال تعالى : **(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)** فأشار فى ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها .

وثمة طائفة زعمت أن العلة فى إعجاز القرآن كافية فى إخباره عما يكون فى مستقبل الزمان نحو قوله تعالى : **(الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين)** (٨) .

وقد رد الخطابى على هؤلاء بقوله : ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من إخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكن ليس بالأمر العام الموجود فى

---

(٦) سورة هود آية ١٣ ، ١٤ .

(٧) أثر القول تطوير البلاغة ، د. كامل الخولى ٤٣ ، والملل والنحل للشهرستانى ١/١٤٢ .

(٨) سورة الروم آية ١ ، ٢ .

كل سورة من سوره أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها » فقال : (**فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداكم من دون الله إن كنتم صادقين**)(٩) من غير تعيين فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا (١٠) .

ومن هنا كانت الغاية العظمى التى اتجه من أجلها العلماء إلى البحوث البلاغية وهى : فهم إعجاز القرآن ، فقد أدركوا أنه لا سبيل إلى سر إعجاز القرآن ، وفهم أساليبه الرفيعة إلا بطريق البلاغة ، وأخذت تشيع فكرة جديدة هى : إن إعجاز القرآن لا يفهم إلا عن طريق علوم البلاغة وحفزت هذه الفكرة كثيرا من الباحثين (١١) .

ومن أجلها نشط المتكلمون وأخذوا يبحثون فى بلاغة القرآن ، والتعرف على أساليبه وكيف يستدلون بآياته على المنكرين ، أو المتشككين، وبدأوا يغذون أفكارهم بالمعانى القرآنية التى تعد فى ذروة البلاغة .

كما وازنوا بين القرآن وكلام المشهود لهم بالبراعة واللسن ، وذلك ليظهروا الفرق الكبير بين القرآن وبين كلام البشر ، فرق ما بين الألوهية والعبودية ، فشأو القرآن من البلاغة لا يدرك ، وغايته من البيان لا تلحق ، وهو المثل الأعلى فى الجمال .

وكان من حسن حظ البلاغة : أن المناقشة فى الإعجاز ... وفهم آيات العقائد قد روجت سوق البحث البلاغى (١٢) .

---

(٩) سورة البقرة آية ٢٣ .
(١١) النقد : د. شوقى ضيف ٨٤ ، الطبعة الثانية .
(١٠) البيان فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٢٣ وما بعدها .
(١٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين الخولي ١٦ .

فالهدف من دراسة البلاغة دينى ، والمتكلمون الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن درسوا البلاغة من أجل الإبانة عن وجه معجزة ذلك الكتاب الخالد وهذه غاية دينية سامية إتجه إليها المتكلمون ، ولهذا جعلوا البلاغة أولى العلوم بالتعلم .

وهذا أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ المتكلم الأشعرى يبين أن البحث فى وجه إعجاز القرآن وبيان طرق بلاغته وفصاحته أحق بكثير من التصنيف فى دقيق الكلام وغامض النحو . فيقول : « ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانا ولمعجزته ثبتا وحجة ... فقد كان بجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن وتكلم فى فوائده من أهل صناعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانته ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الجزء والطفرة ، ودقيق الكلام فى الأعراض ، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو ، فالحاجة إلى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب ، ونحن نصف ما يجب وصفه من القول فى تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته طرق البراعة ... الخ »(١٣) .

حتى إن أبا هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، وهو من المدرسة الأدبية وممن كتب فى النقد الأدبى فى القرن الرابع جعل الهدف من

---

(١٣) إعجاز القرآن للباقلانى ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، تحقيق السيد صقر .

كتابه « الصناعتين » فهم إعجاز القرآن ، كما جعل تعلم الفصاحة والبلاغة واجبا دينيا بعد معرفة الله فقال : « إن أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول على صدق الرسالة وصحة النبوة ، التى رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين .... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه ، وقصورهم بلوغ عن غايته ... وقبيح بالفقيه والقارىء ، والمتكلم المشار إليه فى حسن مناظرته ، وبالعربى الصليب ، والقرشى الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى ... وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل والغبى »(١٤) .

وأكد هذا المعنى أيضا عبد الرحمن بن خلدون (المتوفى سنة ٧٠٦ هـ) بقوله : « إن ثمرة هذا الفن إنما هى فى فهم الإعجاز من القرآن ، لأن إعجازه فى وفاء الدولة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهى أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها وجودة وصفها وتركيبها . وهذا هو الإعجاز الذى تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق

---

(١٤) الصناعتين ٢ ، ٣ ، طبعة صبيح الثانية .

بمخالطة اللسان العربى وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغيه أعلى مقاما فى ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه ، وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون »(١٥) .

ونشطت المباحث البلاغية من أجل قضية الإعجاز ، ولكنها نالت عناية فائقة ، وشغلت عقول العلماء فى القرن الرابع الهجرى فألفوا فيها الكتب الخاصة بها لأن : « الدوى الذى أحدثه رأى النظام فى الإعجاز ما زال قويا فى هذا القرن وصداه يبدو فى الردود المدونة فى كتب الإعجاز التى ألفت فى هذا القرن »(١٦) .

فأبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ المتكلم الأشعرى يؤلف كتابه « إعجاز القرآن » ينكر فيه رأى النظام ، ومن سلكوا طريقه ، كما أجهد نفسه فى الموازنة بين أسلوب القرآن ، وغيره من أساليب البلغاء ليتبين فضل بلاغة القرآن وسموه البيانى(١٧) .

وأبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . المتكلم المعتزلى فى القرن الرابع الهجرى يجمع فى كتابه « النكت فى إعجاز القرآن » بين الرأيين فى الإعجاز : البلاغى ، والإعجاز بالصرفة .

فهو يرى أن : « وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ،

(١٥) مقدمة ابن خلدون - الطبعة الأولى ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، ٤/١٢٦٦ .
(١٦) أثر القرآن فى تطور البلاغة ، د. كامل الخولى ٤٣ .
(١٧) إعجاز القرآن للباقلاني ٤٣ وما بعدها .

والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة »(١٨) .

ولذلك نراه قد جمع بين رأى النظام وغيره فى الإعجاز ، ولكنه بالرغم من أنه جعل بلاغة القرآن جزء علة فى الإعجاز فإنه عنى نفسه للكشف عن بلاغة القرآن وما فيه من روعة أخاذة تملك على الدارس شعوره ، وتثير الكامن من حسه فيبدو جمال القرآن رائعا »(١٩) .

وإن صيغ الرمانى فى عرضه لجمال الصور البيانية فى القرآن أثر خالد مذكور وبلاء مشكور جدير بالثناء والإعجاب أجرى الحياة فى مباحث البيان ، وما أجل أيادى المعتزلة على البحث البلاغى »(٢٠).

فالرمانى عنى أشد العناية بالصور البيانيـة ومـدى تأثيرها فى الوجدان والعاطفة .

وسيظل القرن الرابع تاريخيا « مرحلة خصبة بالبحث القـرآنى وأن هذه الحقبة امتازت بإفراد قضية الإعجاز بالتأليف »(٢١) .

فالقارىء لبلاغة المتكلمين فى هذا القرن « يحس أن البحث البلاغى قد أفاد من قضية الإعجاز ، وأن البلاغة انتقلت من طور كانت فيه غير محددة ولا يتميزه إلى طور تميزت فيه إلى حد ما ، واتضحت الفروق بين بعض الأساليب وبرز الجمال البيانى بجلاء ووضوح »(٢٢) .

---

(١٨) النكت فى إعجاز القرآن ٧٥ .
(١٩) أثر القرآن فى تطور البلاغة ٨١ .
(٢٠) المرجع السابق ١٠٩ .
(٢١) أثر القرآن فى تطور البلاغة ١٠٩ .
(٢٢) المرجع السابق ٨٠ .

وتميزت دراستهم بأنها كانت ذات منهج وتبويب ، وحاولوا تقريب قضية الإعجاز إلى الأفهام بما أظهروا من قواعد بيانية وأصول بلاغية تعرض فنون القول ، وتحاول الوصول بالموازنة إلى إدراك فضل أسلوب القرآن الكريم على غيره من أساليب الفحول وجهدت هذه الطائفة فى إيجاد معايير ومقاييس للجودة البلاغية تتوسل بذلك إلى بيان الإعجاز عن طريق البلاغة ليدرك من عرف العربية بالتعلم كيف بلغ القرآن حد الإعجاز فى بيانه الذى لا يبارى »(٢٣) .

وفى القرن الخامس نجد القاضى عبد الجبار الهمذانى المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، يرجع إعجاز القرآن إلى فصاحته التى عجز العرب عن الاتيان بمثلها وذلك حيث يقول : « ومتى قالوا إنه تحداهم بأن يأتوا مثله ، فى قدر الفصاحة ، وإن لم يكن حكاية للكلام القديم ، فهو الذى نذهب إليه ، وفيه إبطال تعلقهم بأنه : إنما صار معجزة لكونه حكاية للكلام »(٢٤) .

فالبحث فى إعجاز القرآن كان مادة غزيرة ، ومعينا فياضا نهلت منه البلاغة وتكونت حوله ومن أجله ، كما استمدت موضوعها من الكتاب الخالد .

ومن هذه الجهود التى بذلت حول البحث فى إعجاز القرآن كان العطاء البلاغى وهذا ما نتحدث عنه بعد ذلك .

* * *

---

(٢٣) المرجع السابق ٧٩ ، ٨٠ .
(٢٤) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ـ الجزء السادس عشر ـ إعجاز القرآن للقاضى عبد الجبار ٢٢٨ .

ثانيا : مصادر قضية الإعجاز القرآنى والعطـاء البـلاغى

وفى هذا الصدد نجد عددا من المصنفات ما بين كتب ورسائل ، شغلت كلمة الإعجاز عناوينها جميعا بشكل أو بآخر ، ومن أوائل هذه المصنفات والتى أسهمت بدور أساسى فى نشأة البحث البلاغى وإثرائه: « النكت فى إعجاز القرآن » لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، و « بيان إعجاز القرآن » لأبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب المعروف بالخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، و « إعجاز القرآن » للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، و « إعجاز القرآن » للقاضى عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، ثم دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

وإذا أنعمنا النظر فيما عرضت له هذه المصنفات من أفكار وصور بلاغية تبين لنا أن بعضها تأثر ببعض ، إذ تلاقت فى معالجة بعض الأفكار وعرضها بأسلوب واحد أو متقارب ، وبدا الأمر أحيانا أقرب إلى النقل المباشر وأحيانا أخرى يتلقف اللاحق بذور الفكرة من سابقة .

ومن أوضح ما نرى من صور النقل والاقتباس ما صنعه الباقلانى فى ذكره لأقسام البلاغة العشرة التى هى : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان(٢٥) .

---

(٢٥) انظر الباقلانى ـ إعجاز القرآن ـ تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، ط الخامسة ص ٢٦٢ .

فهذه الأقسام هى بعينها ما ذكرها سلفة العظيم الرمانى ، وعدها جميعا وجها من وجوه الإعجاز السبعة فى القرآن(٢٦) .

ومن الإنصاف أن الباقلانى لم ينسبها إلى نفسه ، كما لم يصرح بمن أخذها عنه مكتفيا بأن ذكر أنها لبعض أهل الأدب والكلام ، وبالموازنة بين ما ذكره الباقلانى والرمانى لا تحتاج إلى طول تأمل تبين أن الباقلانى نقلها عن الرمانى دون إضافة على الإطلاق ، بل على العكس من ذلك ، تقاصر عنه ولم يبلغ شأوه ، فلم يقدم تلك الأقسام البلاغية بمثل ماقدمها الؤرمانى شرحا وتوضيحا ، وجاء عرضه لها عرضا مبتسرا ، لا يكاد يتجاوز اسم الصورة البلاغية ، ثم إيراد جميع الشواهد القرآنية أو معظمها بنفس الترتيب الذى أوردها به الرمانى تقريبا ، دون شرح أو تفسير ، وبذ انطوى صفحة الباقلانى فى قضية الإعجاز وتأثيرها على البحث البلاغى من جهة هذه الأقسام العشرة ، لأن صاحب الدور الحقيقى فيها هو الرمانى .

والحق أن عطاء الرمانى للتفكير البلاغى ينطبع فى الذهن منذ اللحظة الأولى ، فقد حرص على توضيح مفهوم البلاغة ، وهو أمر لم يتطرق إليه أحد بهذه الصورة من التحديد ، حقا كان للجاحظ فضل السبق إلى الحديث عن معنى البلاغة بيد أن منهجه تمثل فى عرض آراء السابقين من الكتاب والشعراء وذوى البصر بالأدب سواء من العرب أو من غيرهم ، دون أن يخلص إلى تصور محدد ، على حين قصد الرمانى إلى هذا التصور المحدد من أول وهلة ، وقد رفض أن تكون البلاغة

---

(٢٦) النكت فى إعجاز القرآن - انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٠٩ - ١١٣ .

إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر غيي، كذلك رفض أن تكون البلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف ، والمفهوم الذى يرتضيه أن البلاغة هى : « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ »(٢٧) .

ونظن ظناً أقرب إلى اليقين أن أبا هلال العسكرى قد أخذ هذا التعريف ، واعتمد عليه فى صياغة تعريفه .

ومع وضوح هذا المعنى للبلاغة عند الرمانى لم تكن كل الوجوه العشرة التى ذكرها من البلاغة حقيقة ، فالتصريف والتضمين ، ليسا من البلاغة فى شىء وإنما هما أقرب إلى ميدان علم الكلام ، وليس هناك أدنى صلة بين « التضمين » عنده ، وظاهرة « التضمين » المعروفة فى علم البديع ، لهذا لم يعتد أحد من البلاغيين بهذين الوجهين ، ولا نكاد نرى لهما أثرا فيما نعرف من كتب التراث البلاغى .

أما الوجوه البلاغية الأخرى فقد كانت معروفة بأسمائها بين النقاد وغيرهم من أهل اللغة والأدب ، والجديد الذى ينبغى تسجيله والتنويه به إنما يتراءى فى أسلوب معالجته لتلك الوجوه ، فهو مستقل فى تفكيره ورأيه ينزع إلى التنظير ، ومحاولة ضبط الصور البلاغية التى يعرض لها ضبطا منهجيا إلى حد كبير ، وذلك بتعريفها ، ثم بيان

---

(٢٧) النكت فى إعجاز القرآن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ٧٥ ، ٧٦ .

ما يراه من أقسام لها ، وتوضيح ذلك بالشواهد القرآنية ، وكان له فى ذلك صوت مسموع تردد صداه فى البحث البلاغى لدى نفر من العلماء الذين عاصروه أو أتوا بعده ، سواء وافقوه فى الرأى أم خالفوه(٢٨) .

وأوضح ما يتمثل فيه ذلك مما تناوله من الوجوه البلاغية للتشبيه ، والاستعارة ، والإيجاز ، ففى التشبيه اختط لنفسه نهجا اختلف به اختلافا بينا عن ناقدين بارزين سبقاه إلى الحديث عنه ، هما ابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، وقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، فعلى حين يقول قدامة عن التشبيه إنه « إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ، ويوصفان بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها »(٢٩) يذهب الرمانى إلى أنه « العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل »(٣٠) ثم يمضى إلى تقسيمه عدة تقسيمات لا نلمح فيها أثرا لتقسيمات ابن طباطبا(٣١) وهذه التقسيمات ثلاثة : أولها تقسيمه إلى تشبيه حسى ، وتشبيه نفسى ، فالتشبيه الحسى كماءين ، وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، والنفسى كتشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، التقسيم الثانى تشبيه شيئين

(٢٨) المرجع السابق ١٦٤ .

(٢٩) نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، الخانجى ص ١٠٩ .

(٣٠) النكت فى إعجاز القرآن ٨٠ .

(٣١) يقول ابن طباطبا : « والتشبيهات على ضروب مختلفة . فمنها تشبيه الشىء بالشىء وصورة وهيئة ، ومنها تشبيه به معنى ، ومنها تشبيه به حركة وبطئا وسرعة ، ومنها تشبيه به لونا ، ومنها تشبيه به صوتا ... » الخ . (عيار الشعر ، تحقيق عباس عبد الستار) ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعها مشترك بينهما ، فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد ، والثانى كتشبيه الشدة بالموت ، والبيان بالسحر الحلال ، التقسيم الثالث ، تقسيمه إلى تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت (٣٢) .

ويلاحظ أن التقسيمين الأخريين من التقسيمات الثلاثة متفقان فى المضمون وإن أختلفت القسمة بينهما ، فتشبيه شيئين متفقين بأنفسهما هو نفسه تشبيه الحقيقة ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما لا يخرج عن معنى تشبيه البلاغة ، كذلك يلاحظ اصطباغ تلك التقسيمات بصبغة عقلية واضحة ومع ذلك هناك لمحة ذكية فيما أسماه تشبيه الحقيقة ، وتشبيه البلاغة ، فكلا الاصطلاحين يشير إلى طبيعة الوظيفة المختصة بالتشبيه وهى أنها قد تكون تعريف القارىء أو السامع بحقيقة يجهلها ، وقد تكون إثارة الشعور وتحريك الوجدان . وإلى جانب ذلك نقطة أخرى تحسب للرمانى فى هذا الشأن ، وهى أنه تحدث عن التشبيه وأفاض القول فيه بأكثر مما فعل غيره ، وكانت إفاضته فى جانب يتصل اتصالا مباشرا بالتشبيهات القرآنية ، وفيها تركز الحديث عن بلاغة التشبيه ، وأنواع البيان التى يؤديها وقد نقل أبو هلال العسكرى كل ما قاله الرمانى فى التشبيه مع تغيير يسير فى العبارة ، دون إشارة فى أغلب الأحيان ....

---

(٣٢) انظر النكت فى إعجاز القرآن ٨٠ ـ ٨١ .

وفى الاستعارة يتخذ الرمانى كذلك موقف الاستقلال فى الرأى؛ فلا ينقل عن الجاحظ ، أو ابن قتيبة ، أو ابن المعتز ما قاله أى منهم عنها ، وإنما يختار صيغة تعبر عن فكره الخاص ، فيقول : « إنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة »(٣٣) .

وكانت هذه الصيغة موضع مناقشة من جانب بعض البلاغيين فيما بعد(٣٤) على أنه فى هذا الموضوع ذاته تطرق إلى فكرتين من الأفكار التى احتلت مكانها فى التفكير البلاغى ، إحداهما علاقة الاستعارة بالتشبيه ، والأخرى مزية الاستعارة على الحقيقة ، وهذا الذى قاله الرمانى فى الاستعارة تردد صداه عند أبى هلال كما حدث فى التشبيه(٣٥) .

وفى حديثه عن الإيجاز نرى بصمة الرمانى واضحة قوية ، فتعريفه له يتسم بالدقة إذ قال إنه (تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى) ، فليس تقليل الألفاظ عن المعانى إيجازا بلاغيا فى كل حال ، وإنما الشرط أن يتم ذلك من غير إخلال بالمعنى المراد ، وإلا كان الكلام تقصيرا ، وهو - فيما يبدو لنا - أول من ميز بين نوعيه المعروفين :

---

(٣٣) النكت فى إعجاز القرآن : ٨٥ .

(٣٤) انظر ما قاله عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز (تحقيق محمود شاكر) : ٤٣٤ .

(٣٥) الصناعتين : تحقيق على البجاوى ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، ص ٢٧٦ - ٢٨٢ .

إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر · ولعلـه كذلك أول من استخدم الاصطلاح الدال على النوع الثـانى(٣٦) ·

هكذا أفضى البحث فى إعجاز القـرآن عند الرمانى إلى توضيح عدد من المصطلحات البلاغية وتعميق مفاهيمها ·

* * *

(٣٦) والذى يطلع على كتاب الصناعتين لأبى هلال يجده هو صاحب هذا التقسيم ، وهذا ليس بصحيح لأن طريقة أبى هـلال فى الأخذ والاقتباس تجعلنا نرجح أن الرمانى هو صاحب التقسيم لأنه أسبق ·

المبحـث الثـانى

ويتضمن أولا : نشـأة علم المعـانى

ثانيا : ميـدان علم المعـانى

أولا : نشأة علم المعانى

علم المعانى واحد من فروع البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع . وهناك فارق زمنى بين تناول المسائل التى تضمها مباحث هذا العلم على يد البلاغيين وبين إطلاق هذا المصطلح على هذه المسائل - وتسميتها باسم علم المعانى .

فمسائل هذا العلم تفرقت فى كتب النقد والأدب والإعجاز القرآنى من فترة مبكرة ، وكان الأوائل يستعملون مصطلح (المعانى) فى دراستهم القرآنية ، والشعرية ، فيقولون : (معانى القرآن) أو (معانى الشعر) ويتخذون من ذلك أسماء لكتبهم ، وليس فى هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو بأحد علومها(١) .

وقد عقد ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ فى كتابه (الصاحبى) بابا سماه (معانى الكلام) ، وقال : « هى عند بعض أهل العلم عشرة : خبر واستخبار ، وأمر ونهى ، ودعاء وطلب ، وعرض وتحضيض ، وتمن ، وتعجب »(٢) .

وإشارة ابن فارس تلك جعلت كثيرا من علماء البلاغة يضيفون إليه أنه صاحب الفضل فى إطلاق (معانى الكلام) على مباحث الخبر والإنشاء ، التى أصبحت فيما بعد بابا من أبواب « علم المعانى »(٣) ، ولكن البحث الناضج العميق فى مسائل هذا الفرع

---

(١) مصطلحات بلاغية : ٥٣ .
(٢) الصاحبى : ١٧٩ .
(٣) مصطلحات بلاغية : ٥٤ .

تم على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى كتابه : (دلائل الإعجاز) مستندا إلى نظرة فلسفية تضم شتات مسائله ومدفوعا فى البداية لهدف دينى .

فكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى هو أول كتاب تنتظم فيه مسائل هذا العلم ، لكن انتظام هذه المسائل لم يكن مرتبطا بإطلاق مصطلح (علم المعانى) عليها ، وإنما يطلق عبد القاهر على هذه المسائل حينا (مصطلح البيان) أو مصطلح (النظم) . وأحيانا يسميها الفصاحة أو البلاغة .

وإذا كان عبد القاهر قد درس هذه المسائل أو ناقشها ، دون أن يشير إلى أنها علم المعانى ، فإن أول من أطلق هذا المصطلح من الدارسين ، هو العلامة جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، ولقد كان الزمخشرى واحدا من أئمة مدرسة المعتزلة وكان مولعا بآثار العالم الجليل البلاغى عبد القاهر الجرجانى فعكف على كتابيه دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وتمثلهما ، ورأى أنهما يمثلان فكرة مجملة رائعة تحتاج إلى بسط وشرح وتطبيق - واختار مجال تطبيقه كتاب الله ، فكتب على أساس من هذا الفهم البلاغى الناضج ، كتابه (الكشاف) واستطاع أن يقف أمام كثير من أسرار بلاغة القرآن .

والذى يهمنا هنا أن نشير إلى أن الزمخشرى فى صدد تقديمه لثقافة المفسر التى ينبغى أن تتوافر له قبل أن يعكف على كتاب الله ذكر أنه « لا يتصدى لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص علي شيء من

تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى وعلم البيان »(٤) .

وهذه هى المرة الأولى فى التاريخ البلاغى التى يستعمل فيها مصطلح علم المعانى مقصودا به الإشارة إلى مجموعة المسائل التى درجت البلاغة فيما بعد على دراستها تحت هذا الفرع .

ولقد أكد استعمال هذا المصطلح - وثبته - أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وذلك فى كتابه (مفتاح العلوم) الذى قسمه ثلاثة أقسام ، جعل الأول منها للصرف ، والثانى للنحو ، والثالث للمعانى والبيان ، وألحق بهما مسائل الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية(٥) .

ولقد كان هذا تثبيتا من السكاكى لمصطلح (المعانى) الذى اختاره الزمخشرى وهذا التثبيت تبعه عند السكاكى ، عد لمسائل هذا العلم ، وذكر لقواعد كل منها وتعريف بأمثلتها وشواهدها ، وهذا التحديد والتعريف والاستشهاد عند السكاكى أصبح محورا أو مرجعا لكل الدراسات البلاغية التى تبعته حتى الآن .

فقد لحق الجمود بالدراسات الأدبية عامة ومنها البلاغية وسيطر عليها التقليد .

وأصبحت كتب البلاغة كلها تدور حول كتاب المفتاح للسكاكى - تلخيصا أو شرحا أو بسطا أو إيجازا مع أن كتاب السكاكى نفسه ،

---

(٤) مقدمة تفسير الكشاف : ص (ك) .
(٥) مفتاح العلوم للسكاكى : ٧٠ .

خـلا من روح التذوق الأدبى الجميـلة التى كانت توجد عند الإمـام عبد القاهر الجرجانى .

مصطلح المعـانى إذن ابتـكره الزمخشرى ، وعـرفه السكاكى ، ودرس مسـائله من قبلهما عبد القاهر الجرجانى دون استعمال للمصطلح أو تعـريف له .

وكان محـور ما دارت عليـه مسـائل هذا العلم عندهم جميعـا هو تتبع خواص تراكيب الكلام أى تتبع خواص الجملة أو الجمل .

ثانيـا : ميـدان علم المعـانى

ويتعرض بصدده إلى نظرية النظم باعتبـار أن تلك النظرية هى بمثابة التربة الخصبة التى نبتت فيها ،بل نضجت مباحث علم المعانى.

نظـرية النظم لدى عبد القاهر الجرجانى :

لقد خصص عبد القـاهر الجرجانى لنظـرية النظم عنده كتـابه المسمى (دلائل الإعجاز) وهى تسمية توحى - لأول وهلة - بالغـاية التى يهدف إليهـا من تلك النظرية ، وهى إثبات أن الإعجاز فى كتاب الله الخالد هو إعجاز نظم ، والواقـع أن النظـر إلى النظم فى ضوء تلك الغـاية أمـر لم ينفـرد به عبد القاهر فهو مسبوق فى ذلك بكثير من الذين شغلوا بقضية الإعجاز القـرآنى ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان لعبد القاهر الفضـل فى إرسـاء دعائم تلك النظرية وتعميق أسسهـا بحيث أصبحت لا تنسب - حـين تنسب - إلا إليـه ، وهـذا يدعونا إلى الوقوف - قليـلا - إزاء بعض النظـرات التى سبقته فى هذا الميدان حتي يتبين لنـا إلي أي حد لم تكن تلك النظرات سـوى

بذور وأفكار أولية نماها عبد القاهر وأضاف إليها بحيث أصبحت لديه (نظرية) متكاملة الجوانب .

النظم قبل عبد القاهر :

أول من تكلم عن النظم هو الجاحظ المتوفى (٢٥٥ هـ) عندما قال : « وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج »(٦) .

هذا بالإضافة إلى أن للجاحظ كتابا فى (نظم القرآن) ذكره الباقلانى عندما هاجم الجاحظ فى قضية النظم فقال : « وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى »(٧) .

ثم تحدث الجاحظ عن الكلمة إحدى مفردات النظم واشترط لفصاحتها أن تكون بريئة من تنافر الحروف حتى تبدو كأنها بأسرها حرف واحد(٨) . ويرى ألا يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا . ولا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا(٩) وأن تكون الكلمة جارية على القواعد النحوية والصرفية .

من هذا العرض أكان الجاحظ يرى أن (النظم) ضم لفظ إلى لفظ كيف جاء واتفق ؟ أم أنه كان يطلق النظم ويريد منه شيئا آخر ؟

---

(٦) البيان والتبيين ٣٨٣/١ ، تحقيق عبد السلام هارون (الطبعة الثالثة بالقاهرة) .
(٧) إعجاز القرآن للباقلانى : ٦ .
(٨) البيان والتبيين ٣٨٥/١ .
(٩) المرجع السابق : ٣٨٧/١ .

والذى يظهر لنا أنه كان يطلق على نظم الحروف وتلاؤم مزاجها وانسجام أجراسها حتى تكون فى خفتها ورشاقتها كالحرف الواحد ، وحتى تكون الألفاظ كأنها لفظ واحد .

كما أشار إليها الرمانى فى رسالته (النكت فى إعجاز القرآن) وذلك فى باب التلاؤم وحاول فيه أن يتصور نظم الكلام ، وذلك حيث يقول : « وحسن البيان فى الكلام على مراتب فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد وحتى يتأتى على مقدار الحاجة فيما حقه من المرتبة »(١٠) .

ويقول أيضا : « والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريقة الدلالة ... والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ، وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع وتقبله فى الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام »(١١) . والرمانى لم يقدم تفسيرا علميا للنظم وبيان أسراره .

وتكلم عنها الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وصرح بأن القرآن إنما صار معجزا لأنه « جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى »(١٢) ، ثم يؤكد أهمية النظم (العنصر الثانى

(١٠) النكت فى إعجاز القرآن : ١٠٧ .
(١١) المرجع السابق : ٩٦ .
(١٢) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧ .

من تلك العناصر) قائلا : « وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى ، فيه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه مع بعض ، فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان »(١٣) .

والنظم الذى تحدث عنه الخطابى ليس هو وحده محور البلاغة ، وإنما هو أحد عناصر ثلاثة تقوم عليها وهى : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم .

وقد كان من المتوقع – وقد تأخر الزمن بالباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ – أن يتقدم بفكرة النظم خطوة أخرى على الطريق ، أو أن يقدم لها مفهوما مختلفا ، لاسيما أنه ما فتىء يثنى على نظم القرآن، ويعلى من قدره فى مواضع شتى من كتابه . بيد أنه لم يتجاوز هذا الوصف المجمل ، ولم يقدم شيئا ذا بال يتعلق بها(١٤) .

ولم يكن القاضى عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ بأحسن حالا من الباقلانى فى الكلام عن النظم ، وكل ما نراه أنه يروى عن شيخه أبى هاشم الجبائى أحد أئمة المعتزلة أن الكلام يكون فصيحا بأمرين : جزالة لفظه وحسن معناه وهو يقيم فاصلا بين الفصاحة والنظم ، ، فلا تتوقف فصاحة الكلام على أن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف ، وقد يتحد النظم وتقع المزية فى الفصاحة(١٥) .

---

(١٣) المرجع السابق : ٢٨ .
(١٤) إعجاز القرآن : ص ١١٢ .
(١٥) المغني : الجزء السادس عشر ، تحقيق أمين الخولي ، ص ١٩٧

تلك هى بعض الآراء التى سبقت عبد القاهر الجرجانى ، ولعلنا نلاحظ أنها تلتقى حول محور واحد وهو التأكيد على قيمة النظم باعتباره مناط التفرد وميدان التفاضل فى اللغة الفنية ، ونلاحظ أيضا أن تلك الآراء جميعها لا تكاد تتجاوز حدود التنظير لفكرة النظم . هذا فضلا عن أن أيا من هؤلاء لم يبين لنا طريقة محددة ما هو النظم ؟

وهذا كله هو ما نهض به عبد القاهر الجرجانى يسعفه فى ذلك نظر ثاقب ، وموهبة فطرية وثقافة لغوية واسعة .

والذى يعنينا هو أنه جعل من نظريته فى النظم منطلقا لدراسة الأساليب البلاغية وتحليلها تحليلا فنيا بارعا ، فقد عالج فى اطارها مباحث علم المعانى (مع ملاحظة أنه لم يطلق عليها هذا المصطلح) معالجة تكشف عن ذوق رهيف وذهن متقد .

والآن إلى فكرة النظم لديه :

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجانى

انتهت هذه الجهود البلاغية إلى عبد القاهر الجرجانى ، وكان كثير الاطلاع على ما كتبه أسلافه ، ينظر فى ذلك التراث وينتقى من خلاله ما يساعده على إبراز فكرته ويناقش فى تبصر العلماء فيما لا يتفق ورأيه ، وكل ذلك فى أمانة علمية يشير إلى المصدر الذى أفاده ، وينقل فى معظم الأحايين - النص مشفوعا به اسم الكتاب واسم مؤلفه ، وهى طريقة منهجية فى البحث .

وحين تناول عبد القاهر النظم أشار إلى أن هناك اتجاها عاما بين العلماء يعرف للنظم مكانته وذلك إذ يقول : « وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره وإجماعهم على أن لا فضل مع عدمه ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ فى غرابة معناه ما بلغ »(١٦) .

وهو يشير على نحو خاص إلى مجهودات العلماء فهو ينقل عن الجاحظ فى أمر الإعجاز القرآنى .. قوله : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة ، لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها »(١٧) .

ولقد وقف الرجل على مقالة القاضى عبد الجبار فى رد الفصاحة إلى ضم الألفاظ بعضها إلى بعض على نحو مخصوص ، وكان فيما يبدو الشعاع الهادى له إلى وضع نظريته ، لكنه لم يشأ أن يعترف للرجل بفضل السبق حذرا أن يذهب بالفضل دونه ، أو يقول قائل : لو لم يقف على ما قاله القاضى عبد الجبار ما وصل إلى ما وصل إليه ، فعرض عبد القاهر رأى عبد الجبار دون أن يسميه ، مشيرا إلى أنه قول مجمل غير كاف ، قال : « ولا يكفى أن تقولوا : إنه خصوصية فى كيفية النظم ، وطريقة مخصوصة فى نسق الكلم بعضها على بعض حتى تصفوا تلك الخصوصية ، وتبينوها ، وتذكروا أمثلة لها »(١٨) .

---

(١٦) دلائل الإعجاز : تحقيق خفاجى ، ١٢٢ .
(١٧) المرجع السابق : ٢٧١ . (١٨) المرجع السابق : ٨٧ .

وإن كان عبد القاهر لم يذكر اسم عبد الجبار صراحة ، ربما لاختلاف مذهبهما الفكرى فقد كان عبد الجبار من المعتزلة ، وعبد القاهر من الأشاعرة ولكنه مع ذلك ينقل رأيه محتفظا بنفس الكلمات ومسجلا سبقه إلى إدراك خيوط الفكرة الأولى .

وإذا كان الباقلانى قد أدرك من قبل ضرورة وقوع المخالفة بين لون البلاغة القرآنية وبلاغة الكلام الآخر ، ولم يستطع أن يحدد الملامح الخاصة للبلاغة القرآنية إلا بأن يقول إنها تخضع للنظم فقد انطلق عبد القاهر من هذه النقطة وعمقها ...

ويتساءل عبد القاهر .. ما الشىء الجديد الذى أتى به القرآن للأسلوب العربى وما ذلك الشىء الذى عجز العرب عن أن يأتوا بمثله ؟ لقد تحدى القرآن العرب - وهم أهل فصاحة - تحديا تدريجيا - عجزوا فى كل مراحله .. فتحداهم أولا أن يأتوا بقرآن مثله وقال لهم : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله .

ثم انقص المقدار المتحدى به (**قل فأتوا بعشر سور من مثله**) ثم انقص المقدار مرة أخرى (**فأتوا بسورة من مثله**) ... وهكذا كان العجز ، مع أن القرآن كلام عربى مثل كلامهم الذى يقولونه ، ويستعمل الحروف والألفاظ والجمل ذاتها . فما هو الشىء الجديد إذن ؟

لنأخذ مثلا قول الله سبحانه وتعالى : (**الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين**) لنرى - الشىء

---

(١٩) سورة الفاتحة : آيات رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

الجديد من الناحية اللغـوية ـ الذى يخالف به هذا الكلام سـائر كلام العـرب .

ليس هناك جديد فى حـروف هذه الكلمـات فجميعها تقـع فى إطار حروف المعجم الثمانية والعشرين ، ولقد كان العـرب يستعملون الحـروف ذاتها فى بنـاء كلماتهم ، ولعـل ذلك مما دعا القـرآن إلى أن يورد فى بعض أوائل الســور مجموعة من الحروف متفرقة ، لا معنى محدد لهـا فى تجميعها مثـل : (الم) ، (كهيعص) ، (حم) وجعـل هذه الحـروف تنطق مستقلة .

وتلك كانت إشـارة من القـرآن الكريم إلى أن حروفه هى نفس الحـروف التى يستعملونها فى كلامهم العـادى ، ومع ذلك فهم عاجزون عن قبول التحدى والإتيـان بمثله ..

إذن ليست الحروف هى الشىء الجديد ، ولا يمكن أنت كون سرا بلاغيا للإعجاز ، وكذلك ليست الألفـاظ هى سر بلاغة القـرآن ، لأنها ليست جديدة على العــرب ، فهم يعرفون من قبـل ذلك كلمات الحمد ، والله ورب ، والعـالمين ، ومالك ، ويوم .. الخ .

ويستعملون الألفـاظ فى نفس معانيها المـرادة منها فى الاستعمال القـرآنى ، فيمـا عـدا تغييرات طفيفـة فى بعض المصطلحات التى استحدثها القـرآن ، مثل الصـلاة والزكاة والصيام وغير ذلك ، فالقرآن إذن لم يأت بجديد فى ألفـاظه ولا فى مدلولات تلك الألفاظ ، وإذا كان بعض البلاغيين والنقاد السـابقين على عبد القاهر قد جعلوا للألفـاظ شـأنا كبيرا فى تحقيق بلاغة الكلام ، فإن عبد القاهر يرفض بشـدة تلك الفكرة ووقف محـاربا أن يكون للألفـاظ شـأن كبير فى الصياغة

الأدبية ، وعنده أن الألفاظ تابعة للمعانى وذلك حيث يقول : « لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوخى فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ترتيبا و نظما ، وأنك تتوخى الترتيب فى المعانى ، وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى ، وتابعة لها ، ولاحقة لها ، وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق »(٢٠) .

وعبد القاهر يلح على تأكيد رأيه فى اللفظ وقيمته البلاغية فى مواضع كثيرة من كتابيه دلائل الإعجاز(٢١) ، وأسرار البلاغة ، وهو إلحاح يدعونا إلى التساؤل عن سر هذا الموقف المتشدد من عبد القاهر ، والذى يعارض به الجاحظ وقد تتلمذ عبد القاهر على كتبه وكان كثير الإعجاب بها والإشارة إليها .

ولعل السر يكمن فى نظرة عبد القاهر إلى العنصر الذى ينبغى أن يفرق به بين النص الأدبى وغيره . وعند عبد القاهر أن هذا العنصر هو الفكر بالدرجة الأولى ، أو فلنقل طريقة بناء الفكر وترتيبها وإخراجها ،و عبد القاهر هنا ، يجعل البلاغة صناعة الفكر العميق لا صناعة الذى يعرف بعض القشور اللفظية ، والبلاغة التى ترجع إلى الفكر أكثر من اللفظ تجعل لغتها عالمية ، يستمتع بها أصحاب اللغات الأخرى حين تترجم إليهم فلم يستمتع الفارسى مثلا بنص عربى

---

(٢٠) دلائل الإعجاز : ص ١٠١ .

يترجم إليـه إذا كان ما يميزه هو مجموعة من الألفـاظ العربية الجميلة لأننا لا يمكن أن ننقـل جمال هذه الألفـاظ فى الترجمة ، وإنما يستمتع حين يكون النص ذا قيمـة فكرية (٢٢) .

ولعـل من دوافع عبد القاهر إلى اعتناق هذه الفكرة والدفاع عنها رغبـة فى أن يحس الموالى - وهم المسلمون الذين ليسوا من أصـل عـربى وعبد القـاهر واحـد منهم أن البـلاغة ليست مقصـورة على العـرب والأعراب الذين تعلموا اللغـة من آبائهم وأمهاتهم أو أتقنوها فى قبائل البـادية وإنما البلاغة وحسن الأداء اللغوى فكر يستطيع أن يدركه المولى ، كما يستطيع أن يدركه العـربى ، وتستطيع أن تدركه الأجيـال اللاحقة التى تدرك العربية بالتعليم كأجيالنا نحن الآن كما أدركته الأجيـال السابقة التىأ دركت العربية بالتلقى والسليقة ، ومن هنا قال : « إنك تجد كثيرا ممن يتكلم فى شـأن البـلاغة إذا ذكـر أن للعرب الفضـل والمـزية فى حسن النظم والتأليف وأن لها فى ذلك شـأن لا يبلغـه الدخـلاء ، فى كلامهم والمولدون جعـل يعلـل ذلك بأن يقول : لا غـرو فإن اللغـة لها بالطبع ولنـا بالتكلف ، ولن يبلغ الدخيـل فى اللغـات والألسنة مبلغ من نشـأ عليها ، وبدىء من أول خلقـه بهـا ، وأشباه هذا مما يوهم أن المـزية أتتها من جانب العلم باللغـة ، وهو خطـأ عظيم ، وغلط منكر يقضى بقائله إلى رفـع الإعجـاز من حيث لا يعـلم »(٢٣) .

---

(٢١) انظر على سبيل المثـال فى دلائل الإعجاز ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٣٠٣ .

(٢٢) أسـرار البـلاغة : ٤٠ .

وإذن فعبد القـاهر يرى أن الألفـاظ ـ من حيث هى ألفـاظ ـ لا توجب إعجازا للقـرآن لأنها ليست جديدة على العرب بصورتها تلك ولأنها كذلك ، ليست صاحبة المكانة الأولى فى إعطاء القيمة الأدبيـة للنص الأدبى ، وبهذا لا يمكن أن يعد عبد القاهر من أصحاب اللفظ وأنصـاره فى تاريخ البلاغة العـربية ، على أنه كذلك لا يمكن أن يعد من أصحاب المعنى المقابلين لأولئك ، ذلك أن المعنى بالمفهوم المقـابل للفظ ، ليس جديدا على اللغـة ومن هنا هاجم عبد القاهر أصحـاب المعنى هجوما قاسيا حيث يقول : « واعلم أن الداء الدوى ، والذى أعى أمـره فى هـذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه . وأقل الاحتفال باللفـظ وجعـل لا يعطيه من المـزية إن هو أعطى إلا ما فضـل عن المعنى : يقول ما فى اللفظ لولا المعنى وهـل الكلام إلا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ... واعلم أنا وإن كنا إذا اتبعنـا العرف والعادة ، وما يهجس فى الضمير ،و ما عليـه العـامة ، أرانا ذلك أن الصـواب معهم ، وأن التعويل ينبغى أن يكون على المعنى .. فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق ، وإلى ما عليه المحصلون »(٢٤) .

وإذا كان إعجـاز النص أو فصاحته لا تأتى من قبـل حروفه ، ولا ألفـاظه ، ولا معانيه بالمفهوم السـائد لكلمـة المعنى فى المناقشات النقدية السـابقة على عبد القاهرة الجرجانى فمن أين يأتى الإعجـاز إذن ؟ .

---

(٢٣) دلائل الإعجـاز : ص ٢٦١ .
(٢٤) المرجـع السـابق : ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

إن عبد القاهر يتبع بقية عناصر النص التى يتوقع أن يأتى الإعجاز أو الفصاحة من قبلها وينبغى أن نتذكر أن نفى عبد القاهر لصفة الإعجاز عن هذه العناصر ، ليس معناه خلوها من الفصاحة ، ولا من كونها عناصر داخلة فى تكوين جمال النص وإنما معناه أن هذه - العناصر التى ذكرناها - الحروف والألفاظ والمعانى - تلك والتى سوف يجىء ذكرها لا تصح وحدها أن تتخذ أساسا لتفسير الإعجاز لأنه ليس من بينها عنصر جديد على لغة العرب لم تألفه من قبل أو لا يمكن تقليده ٠

من بين هذه العناصر تركيب حركات الكلام وسكناته ، أو ما يمكن أن يسمى الإيقاع العام للجمل ، وحقيقة تميز القرآن بنوع من الإيقاع، يتمثل فى الآيات التى تأتى أحيانا منتهية بفواصل متشابهة فى الحرف الأخير أو متقاربة ، وذلك كفواصل سورة الفاتحة مثلا ، والتى تنتهى جميعا بحرف النون أو الميم وهما حرفان متقاربان إلى حد كبير ، وكسورة الرحمن التى تنتهى فواصل آياتها بحرف النون ، وأحيانا تتشابه نهايات فواصل بعض الآيات التالية دون أن يمتد ذلك إلى بقية آيات السورة ، وكذلك تتشابه الآيات أحيانا فى حجمها ، وذلك النوع من الإيقاع أو ترتيب الحركات والسكنات والحروف ، هو ما فهمه الجبائى على أنه النظم ، وعبد القاهر يرى أن هذا الإيقاع ليس جديدا على اللغة ، فقد عرفته من قبل فى نظام السجع ، وفى نظام القوافى الشعرية ، ولا يصح مثل ذلك الإيقاع تفسيرا للإعجاز ودليل ذلك أن بعض الكذابين الذين ادعوا أنهم أنبياء حينما حاولوا تقليد القرآن الكريم لجأوا إلى إيقاعه محاولين بناء كلام على نفس

الإيقاع فجاء حديثهم غاية فى الحماقة ، من مثل قول مسيلمة : (إنا أعطيناك الجواهر - فصل لربك وجاهر -) مقلدا إيقاع قوله تعالى : « **إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر** »(٢٥) .

ومن العناصر التى يمكن أن يتوهم أن لها علاقة بفصاحة النص أو إعجازه ، الغرابة وخفة الحركات .

ولا يمكن أن تكون الغرابة سببا للإعجاز لأن القرآن لا يكثر من الغريب فلقد تمر السورة الطويلة ليس فيها كلمة غريبة على الآذان، ويضاف إلى ذلك أن الـ عرف العام ينفر من استعمال الغريب فى القول ويحب السهولة والإفهام(٢٦) .

أما أن القرآن خفيف النطق على اللسان ، ومن أجل ذلك كان معجزا فإن هذه الدعوى لا تقف على أقدامها ، لأن كلام العامة والسوقة سهل بطبعه على اللسان ، فكان ينبغى أن يكون فصيحا أو معجزا بهذا النطق ، ولو كان الأمر يرجع إلى خفة الـ حركات ، لعمدنا إلى حركة الفتحة مثلا ، وهى أخف من حركتى الكسرة والضمة، فحولنا الكلام كله إلى حركات مفتوحة حتى يتحقق فى الكلمات معنى الخفة مثلا ، وواضح أن تلك محاولة ساذجة تسىء إلى الكلام بدلا من أن تجعله فصيحا(٢٧) .

هذه عناصر ستة ، وقفنا أمامها فى مواضع متفرقة من كتاب عبد القاهر الدلائل وهى : الحروف ، والألفاظ ، المعانى ، الإيقاع ،

---

(٢٥) المرجع السابق : ص ٢٩٦ .
(٢٦) المرجع السابق : ص ٣٠٤ .
(٢٧) المرجع السابق : ص ٣٠٠ .

الغرابة ، والخفة . وقد رأينا أن عبد القاهر لا يرى أيا من هؤلاء جميعا يصلح مقياسا يفسر الإعجاز على أساسه ذلك لأنها مع دورها الذى لا ينكر فى بناء فصاحة الكلام ، ليست شيئا استحدثه القرآن على طريقة التعبير عند العرب ، وإنما هى أشياء كانوا يعرفونها ، ويمكنهم أن يأتوا بمثلها فلا ينبغى أن يتحدوا بها .

وعبد القاهر بعد أن يناقش هذه العناصر جميعا ويردها ينتهى إلى ما يراه سببا بلاغيا للإعجاز فيقول : « وإذا امتنع ذلك لم يبق إلا أن يكون الإعجاز فى النظم والتأليف لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم »(٢٨) .

فماذا يريد عبد القاهر بفكرة النظم وما مكان هذه العناصر السابقة منها ؟

إن عبد القاهر كان يربط بين البلاغة باعتبارها فنا قوليا - وبين بقية الفنون الجميلة الأخرى مثل فن الرسم والنحت والتصوير ، والنقش ، وتشكيل المعادن ، تلك جميعا كانت ألوانا من الفنون شائعة فى البيئة التى عاش فيها عبد القاهر ، ورأى من خلالها دقة ما يمكن أن يقوم به الفنان فى هذه الفنون وهو يشكل مادته الخام التى توجد أمامه حتى إنه يهبها وجودا جديدا ، رأى عبد القاهر أن الفن البلاغى يمكن أن يتم فيه التشكيل والتعبير على نفس المستوى ، ومن هنا أكثر عبد القاهر الجرجانى من المقارنة بين الفن القولى وسائر الفنون الجميلة الأخرى ، يقول : « وأما نظم الكلم ، فإنك

(٢٨) المرجع السابق : ص ٣٠٠ .

تقتفى فى نظمها آثار المعانى ، وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال التقدم بعضه مع بعض ، وكذلك كان عندهم نظير النسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح »(٢٩) .

ويقول فى موضع آخر : « وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها ، وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب . كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى هى محصول النظم »(٣٠) .

ووجه التشابه الذى يريده عبد القاهر بين الفن القولى والفنون الجميلة هو التماسك والتناسق وخدمة كل جزئية للإطار العام ، ويتحقق ذلك فى الفن القولى بأن يكون أوله ممهدا لوسطه ، ووسطه ملائما لآخره ، وبأن تكون كل جزئية فى مكانها المناسب من التعبير تقديما أو توسطا أو تأخيرا .

---

(٢٩) المرجع السابق : ص ٤٠ .

(٣٠) المرجع السابق : ص ٧٠ .

فالنظم إذن عند الإمام عبد القاهر هو : إدراك المعانى النحوية والملاءمة بينها وبين المعانى النفسية فى نسج الكلام وتركيبه ، وفى ضوء ذلك نفهم تعريف عبد القاهر للنظم حيث يقول : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه على النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها ، وذلك أن لا نعلم شيئا يستتبعه النظام بنظمه ، غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق ، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك : إن تخرج ، اخرج ، وإن خرجت ، خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج ، وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك : جاءنى زيد مسرعا ، وجاءنى يسرع ، وجاءنى وهو مسرع أو هو يسرع ، وجاءنى قد أسرع ، وجاءنى وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجىء به حيث ينبغى له وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ، ثم ينفرد كل واحد منهما بخصوصية فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجىء بما فى نفس الحال ، وبلا إذا أراد نفى الاستقبال ، وبأن فيما يترجح فى الجملة ، التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (لو) من موضع (لم)

وموضع (لكن) من موضع (بل) ، ويتصرف فى التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير فى الكلام كله وفى الحذف والتكرار ، والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له»(٣١)

النظم إذن يتحقق عن طريق إدراك المعانى النحوية ، واستغلال هذا الإدراك فى حسن الاختيار و التأليف .

وهنا نقطتان ينبغي التنبيه لهما :

الأولى : وجوب التفريق بين النحو بالمعنى الشائع وبين المعانى النحوية المرادة من النظم :

فالنحو بالمعنى الشائع يراد منه (الاعراب) وتقويم اللسان عند نطق الكلمات - بحيث يجىء نطقها موافقا لطريقة نطق العرب لكلامهم ، وهذا المعنى الشائع للنحو ، لا يصلح أساسا للتفاضل البلاغى والجمالى الذى تقوم على أساسه نظرية النظم ، فالجمل لا يمكن أن تتفاضل بأن بعضها أكثر إعرابا من الآخر وإنما يجىء الإعراب هنا شرطا لصحة الجملة من أساسها ، بحيث يكون خلوها منه موجبا لفسادها ، ووجوده فيها شرطا لكونها كلاما عربيا صحيحا ، أما التفاوت البلاغى والجمالى ، فهو مرحلة تالية لهذه المرحلة فإذا كان النظم يقوم على النحو فإنه لا يراد بالنحو هنا بداهة الإعراب ، وإنما يراد - المعانى النحوية ولنأخذ مثلا لذلك قول الله تعالى : (**فما ربحت تجارتهم**) فحين يتناول الإعراب كلمة (تجارتهم) سوف يقتصر على كونها تقع فى الإعراب فاعلا مرفوعا بضمة ظاهرة،

---

(٣١) **دلائل الإعجاز : ص ٦٤ .**

وانها مضـافة إلى الضمير بعدها ، لكن النظم الذى يقوم عليـه علم المعـانى ، سوف يتنـاول الأمـر من جهـة أخرى ، وسوف يتسـاءل عن معنى الفاعلية فى كلمـة (تجارتهم) فما دمنا نعرف أن الفاعل هو الذى يقوم بالفعـل ، فكيف تقوم التجـارة بالربح ، إن التجـارة معنى ، وليست شخصـا يمكن أن يربح أو يخسـر ، أما الذى يربح ويخسر فى الحقيقـة فهو صاحب التجـارة ، ومن هنا كان المفروض فى التعبير العـادى أن يقـال : فما ربحوا فى تجارتهم ، إذن لمـاذا عدل عن هذا التركيب ، وجعـل التجارة هى التى تربح ، أى لمـاذا أعطى الفـاعلية للتجـارة .. هنا ندخل انطلاقا من دائرة المعـانى النحوية إلى مبحث الجمال فى التركيب ، الذى اكتسبته العبـارة هنا عن طريق المجـاز ، وقد يكون سر استعمال المجـاز هنا الإشـارة إلى أنه فى مجال التجارة يكون المـال نفسـه مقدما على كل شىء حتى إن صاحبه قد يتوارى خلفـه ، ومن هنا فإن إعطـاء ذلك المـال وهـذه التجارة معنى الفاعلية وجعلها هى التى تربح أو تخسـر إنما هو تعبير عن ذلك المعنى النفسى عن طريق استغـلال المعـانى النحوية . وهذا ما استخلصته من عبد القاهر حيث يقـول : « ومن العجيب أننـا إذا نظرنا فى الإعراب وجدنا التفاضل فيـه محالا ، لأنه لا يتصور أن يكون للرفـع والنصب فى كلام مـزية عليهما فى كلام آخـر ، وإنما الذى يتصـور أن يكون ههنا كلامان ، قد وقـع فى إعرابهما خلل ، ثم كان أحدهما أكثر صوابا من الآخـر وكلامان قد يستمر أحدهما على الصواب، ولم يستمر الآخـر ، ولا يكون هذا تفاضـلا فى الإعراب ولكن تركا له فى شىء واستعمالا له فى آخـره(٣٢) .

(٣٢) السـابق : ص ٣٠٢ .

والنقطة الأخرى التى ينبغى التنبيه لها هى : أنه لكى يتحقق النظم لا يكتفى بالإدراك الثاقب للمعانى النحوية فحسب ، وإنما لابد من إدراك كيفية استغلال هذه المعانى فى بناء العبارة أو فى نسجها ونقشها وصياغتها ، وطريقة بناء العبارة واستغلال المعانى النحوية بها ، تقوم على عنصرين هما الاختيار والتأليف ، أما الاختيار ، فيراد به اختيار الكلمة أو الأداه المناسبة للمعنى النفسى ، فعلى مستوى الكلمة قد تجد فى اللغة كلمات مترادفة أو متقاربة المعنى ، ولكن بينهما فروقا دقيقة فى الإيحاء أو المدلول ويتدخل عنصر الاختيار هنا فى الوقوع على الكلمة المناسبة ، والنصوص البلاغية تتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيرا وينبغى التنبيه إلى أنه فى مجال الكلمات المترادفة أو المتقاربة ، لا تحكم بأفضلية مطلقة لكلمة على غيرها ، ولكننا نقول : إن هذه الكلمة مناسبة فى هذا السياق وذلك البناء ، وقد لا تكون مناسبة فى سياق آخر .

ولابد إلى جانب الاختيار من التأليف ، ويراد بالتأليف وضع كل كلمة فى مكانها المناسب من العبارة ، وفقا لمعناها النحوى ، فوضع الكلمة فى موضع الابتداء غير وضعها فى مكان الإخبار وكذلك الأمر فى العبارات المتجاورة ، فقد يكون من المناسب أن يصل بينهما حرف عطف يختلف حسب الموقف والمعنى من الواو ، إلى الفاء وثم وأو وغيرها من حروف العطف ، وقد يكون من المناسب أن تترك الجملتان المتجاورتان منفصلتين لا رابط بينهما ، وفى كل حالة من الحالات يقف وراء (التأليف) معنى نفسى يكمن وراء اختيار الشكل النحوى المناسب للعبارة ، وقد يتعدى الأمر الجملة والجملتين إلى

الجمل التي تعبر عن الفكرة أو تناسب الموقف ، ومدى وفائها بأداء الغرض المناسب .

هذه هى العناصر التى أقام عليها عبد القاهر نظريته فى النظم هادفا من وراء ذلك وضع تفسير علمى لمعنى أحكام الأسلوب وقوة بناءه واضعا فى اعتباره المقارنة بين الفن القولى والفنون الجميلة الأخرى مثل النقش والنحت والتصوير والنسيج ، ولقد كان هذا التصور النظرى المحكم هو الأساس الفلسفى الذى فرع عليه عبد القاهر الجرجانى المسائل البلاغية الجمالية التى أطلق عليها فيما بعد اسم (علم المعانى) ، ولقد اتسعت آفاق نظرية النظم التى رآها عبد القاهر أول الأمر طريقا إلى إثبات الإعجاز القرآنى البلاغى ، لتصبح دراسة أسلوبية واسعة النطاق لأنساق التراكيب فى العربية ، على اختلافها وتنوعها ، وكانت أولى ثمارها تفسير الزمخشرى للقرآن الكريم الذى يعد بحق نموذجا تطبيقيا رائعا لها .

ثم كان ظهور (علم المعانى) بمباحثه المعروفة فى البلاغة العربية التقليدية ، على أيدى السكاكى ورجاله من البلاغيين المتأخرين، أثرا آخر من آثارها . . .

وصل اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وسلم

والحمد لله رب العالمين

المـراجـــع

١ - القــرآن الكــريم ٠

٢ - أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية حتى نهاية القرن الخامس :

د٠ كامل الخولى ، طبعة دار الأنوار ، الطبعةا لأولى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م ٠

٣ - إعجــاز القــرآن للبــاقلانى :

تحقيق السيد أحمد صقر ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٣م

٤ - البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيهــا :

للأستاذأ مين الخولى ، طبع القاهرة ، سنة ١٩٣١ م ٠

٥ - البيان والتبيين ، لأبى عثمان بن بحر الجاحظ :

تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ٠

٦ - دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى :

تحقيق د٠ عبد المنعم خفاجى ، طبع مكتبة القاهرة ، ١٩٨٠ م ٠

٧ - الصــاحبى لابن فارس :

تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٠ عيسى الحلبى ، ١٩٧٧ م ٠

٨ - الصناعتين : الكتابة والشعر ، لأبى هلال العسكرى :

الطبعة الثانية ، طبعة صبيح ٠

٩ - العربية لغة العلوم والتقنية ، د٠ عبد الصبور شاهين :

ط٠ دار الاعتصام ، ١٣٨٦ هـ ٠

١٠ - فقه اللغة العربية ، د٠ وافى : ١٩٥٠ م - الطبعة الثالثة ٠

١١ - مصطلحات العلوم العربية بين الحقيقة اللغوية والاصطلاح :

د٠ محمد القديرى ، رسالة دكتوراه بمكتبتى ، ١٩٩١ م ٠

١٢ - **مفتاح العلوم للسكاكى :** الطبعة الأولى ، مصطفى الحلبى١٩٣٧م

١٣ - **مقـدمة ابن خلدون :**

تحقيق على عبد الواحد وافى ، الطبعة الأولى .

١٤ - النقـد ، د. شوقى ضيف : الطبعة الثانية .

١٥ - **نقد الشعر لقدامة بن جعفـر :**

تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة - الخانجى .

١٦ - **النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز:**

تحقيق د. محمد زغلول سـلام ، ط. دار المعارف .